الرجاء

س: تحدث عن فضل الرجاء وأهميته؟

ج: الرجاء: هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المتوقع لابد له من سبب حاصل، فإن لم يكن السبب معلوم الوجود ولا معلوم الانتفاء، سمي تمنيًا، لأنه انتظار من غير سبب. ولا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، فأما ما يقطع به فلا، إذ لا يقال: أرجو طلوع الشمس وأخاف غروبها، لأن ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها، ولكن يقال: أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذور فيه، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار ومساقي الماء إليها.

وإن القلب المستغرق بالدنيا، كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر.

ويوم القيامة هو يوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقل أن ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه، كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة.

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضًا طيبة، وألقى فيها بذرًا جيدًا غير مسوس ولا عفن، ثم ساق إليها الماء في أوقات الحاجة، ونقى الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع، ثم جلس ينتظر من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، فهذا يسمع انتظاره رجاء.

فأما إن بذر في أرض سبخة صلبة مرتفعة لا يصل إليها الماء ولم يتعاهدها أصلًا، ثم انتظر الحصاد، فهذا يسمى انتظاره حمقًا وغرورًا، لا رجاء.

وإن بث البذر في أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأخذ ينتظر مياه الأمطار، سمي انتظاره تمنيًا لا رجاء.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس إلى اختياره، وهو فضل الله سبحانه، بصرف الموانع المفسدات، فالعبد إذا بث بذر الإيمان، وسقاه ماء الطاعات، وطهر القلب من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت، وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره لذلك رجاء محمودًا باعثًا على المواظبة على الطاعات والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونًا برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا، ثم انتظر المغفرة، كان ذلك حمقًا وغرورًا. قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩]. وذم القائل: ﴿قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾ [الكهف: ٣٦].

وقال معروف الكرخي رحمه الله: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحمق. ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٨].

المعنى: أولئك الذين يستحقون أن يرجوا، ولم يرد به تخصيص وجود الرجاء، لأن غيرهم أيضًا قد يرجوذلك.

واعلم: أن الرجاء محمود، لأنه باعث على العمل، واليأس مذموم، لأنه صارف عن العمل، إذ من عرف أن الأرض سبخة، وأن الماء مغور، وأن البذر لا ينبت، ترك تفقد الأرض، ولم يتعب في تعاهدها.

وأما الخوف، فليس بضد الرجاء، بل رفيق له، كما سياتي بيانه إن شاء الله تعالى. وحال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالأعمال، والمواظبة على الطاعات كيفما تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله ﷻ، والتنعم بمناجاته،

والتلطف في التملق له، فإن هذه الأحوال لابد أن تظهر على كل من يرجوملكًا من الملوك، أو شخصًا من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله ﷻ؟ فمتى لم يظهر، استدل به على حرمان مقام الرجاء، فمن رجا أن يكون مرادًا بالخير من غير هذه العلامات، فهومغرور.

س: اذكر بعض الأحاديث في فضيلة الرجاء؟

ج: روي في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ انه قال: «**قال الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي**» وفي رواية أخرى «**فليظن بي ما شاء**».

وفي حديث آخر من رواية مسلم: أن النبي ﷺ قال: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله**» [أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)].

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «**أحبني، وأحب من يحبني، وحببني إلى خلقي. قال: يا رب: كيف أحببك إلى خلقك؟ قال: اذكرني بالحسن الجميل، واذكر آلائي وإحساني**».

وعن مجاهد رحمه الله قال: «**يؤمر بالعبد يوم القيامة إلى النار، فيقول: ما كان هذا ظني فيقول: ما كان ظنك: أن تغفر لي، فيقول: خلوا سبيله**».

س: من من الناس تشتد حاجته لدواء الرجاء؟

ج: دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان: إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة، وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله.

فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة، فلا ينبغي أن يستعمل في حقه إلا أدوية الخوف، فإن أدوية الرجاء تقلب في حقه سمومًا، كما أن العسل شفاء لمن غلبت عليه البرود، مضر لمن غلبت عليه الحرارة.

ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس ملتطفًا، ناظرًا إلى مواضع العلل، معالجًا كل علة بما يليق بها، وهذا الزمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء،

بل المبالغة في التخويف، وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه، لإصلاح المرضى.

وقد قال علي رضي الله عنه: «**إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم مكر الله**».

س: تحدث عن أسباب الرجاء وطرقها؟

ج: اعلم أن من اسباب الرجاء، ما هو من طريق الاعتبار، ومنها ما هو من طريق الأخبار، أم الاعتبار، فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه من أصناف النعم في كتاب الشكر، فإذا علم لطائف الله تعالى بعباده في الدنيا، وعجائب حكمته التي راعاها في فطرة الانسان، وأن لطفه الإلهي لم يقصر عن عباده في دقائق مصالحهم في الدنيا، ولم يرض أن تفوتهم الزيادات في الرتبة، فكيف يرضى سياقتهم إلى الهلاك المؤبد؟! فإن من لطف في الدنيا يلطف في الآخرة، لأن مدبر الدارين واحد.

وأما استقراء الآيات والأخبار، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤].

وأخبر تعالى أنه أعد النار لأعدائه، وإنما خوف بها أولياءه، فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ [الزمر: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]. وقال: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤-١٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لولم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم**» [أخرجه مسلم (٢٧٤٩)] رواه مسلم.

وفي «الصحيحين» من حيث عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال: «**سددوا وقاربوا**

وأبشروا، فإنه لن يدخل أحدًا الجنة عمله، قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا إلا ان يتغمدني الله منه برحمته» [أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا آدم: قم فابعث بعث النار فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك. يا رب: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فحينئذ يشيب المولود،** ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]. فشق ذلك على الناس، حتى تغيرت وجوههم، قالو: يا رسول الله! وأينا ذلك الواحد؟ فقال ﷺ: «**من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون، ومنكم واحد**» فقال الناس: الله أكبر. فقال النبي ﷺ: «**والله إني لأرجوأن تكونوا ربع أهل الجنة. والله إني لأرجوا أن تكونوا ثلث أهل الجنة، والله إني لأرجوأن تكونوا نصف أهل الجنة**»، فكبر الناس، فقال: «**ما أنتم يومئذ في الناس إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض**» [أخرجه البخاري (٦٥٣٠)، ومسلم (٢٢٢)].

فانظر كيف جاء بالتخويف، فلما أزعج جاء باللطف، ومتى اطمأنت القلوب إلى الهوى، فينبغي أن تزعج فإذا اشتد قلقها، ينبغي أن تسكن ليعتدل الأمر.

وقال ابن مسعود ﷺ: «**ليغفرن الله ﷻ يوم القيامة مغفرة لم تخطر على قلب بشر**».

وروي أن مجوسيًا استضاف إبراهيم الخليل ﷺ فلم يضفه وقال: «**إن أسلمت، أضفتك، فاوحى الله تعالى إليه: يا إبراهيم منذ تسعين سنة أطعمه على كفره فسع إبراهيم ﷺ خلفه، فرده وأخبره في الحال، فتعجب من لطف الله تعالى. فأسلم**».

فهذه الأسباب التي تجتلب بها روح الرجاء إلى قلوب الخائفين واليائسين. فأما الحمقى المغرورون، فلا ينبغي أن يسمعوا شيئًا من ذلك من، بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف، فإن أكثر الناس لا يصلحون إلا على ذلك، كعبد السوء الذي لا يستقيم إلا بالعصا.

الخوف

س: ما تعريف الخوف وما حقيقته؟

ج: اعلم: أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال.

مثال ذلك، من جنى على ملك جناية، ثم وقع في يده، فهويخاف القتل، ويجوز العفو، ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتل، وتفاحش جنايته، وتأثيرها عند الملك، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف. وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية، بل عن صفة المخوف وعظمته وجلاله، إذ قد علم أن الله سبحانه، لوأهلك العالمين لم يبال، ولم يمنعه مانع، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه، وبجلال الله تعالى واستغنائه، وأنه لا يسأل عما يفعل، يكون خوفه.

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قال النبي ﷺ: «**أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية**» [أخرجه البخاري (٧٣٠١)، ومسلم (٢٣٥٦)]. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] وإذا كملت المعرفة، أثرت الخوف، ففاض أثره على القلب، ثم ظهر على الجوارح والصفات بالنحول والاصفرار والبكاء والغشي، وقد يفضي إلى الموت، وقد يصعد إلى الدماغ فيفسد العقل.

وأما ظهوره أثره على الجوارح، فبكفها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، تلافيًا لما فرط، واستعدادًا للمستقبل.

قال بعضهم: من خاف أدلج. وقال آخر: ليس الخائف من بكى، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه.

س: اذكر بعض ثمرات الخوف؟

ج: من ثمرات الخوف، أنه يقمع الشهوات، ويكدر اللذات، فتصير المعاصي

المحبوبة عنده مكروهة، كما يصير العسل مكروهًا عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سمًا، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويذل القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة، والمجاهدة، والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال من وقع في خالب سبع ضار لا يدري أيغفل عنه فيفلت، أو يهجم عليه فيهلكه، ولا شغل له إلا ما وقع فيه، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال، أن يمنع المحظورات، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم، سمي ورعًا، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش، فهو الصدق.

س: ما هي أحوال الناس مع الخوف؟

ج: الخوف سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى.

والخوف، له إفراط، وله اعتدال، وله قصور. والمحمود من ذلك الاعتدال، وهوبمنزلة السوط للبهيمة، فإن الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط، وليس المبالغة في الضرب محمودة، ولا المتقاصر عن الخوف أيضًا محمود، وهو كالذي يخطر بالبال عند سماع آية، أو سبب هائل، فيورث البكاء، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلة، فهو خوف قاصر قليل الجدوى، ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف الذي يضرب دابة قوية فلا يؤلمها ألمًا مبرحًا، فلا يسوقها إلى المقصد، ولا يصلح لرياضتها، وهذا هو الغلب على الناس كلهم، إلا العارفين والعلماء، أعني العلماء بالله وبآياته، وقد عز وجودهم. وأما المرتسمون برسوم

العلم، فإنهم أبعد الناس عن الخوف.

وأما القسم الأول، وهوالخوف المفرط، فهو كالذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط، فهو أيضًا مذموم، لأنه يمنع من العمل، وقد يخرج المرض والوله والموت، وليس ذلك محمودًا، وكل ما يراد لأمر، فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه، فهومذموم، وفائدة الخوف الحذر، والورع، والتقوى، والمجاهدة والفكر، والذكر، والتعبد وسائر الأسباب التي توصل إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة، مع صحة البدن وسلامة العقل، فإذا قدح في ذلك شيء، كان مذمومًا.

فإن قيل: فما تقول فيمن مات من الخوف؟ فالجواب: أنه ينال لموته على تلك الحال مرتبة لا ينالها لومات من غير خوف، إلا أنه لوعاش وترقى إلى درجات المعارف والمعاملة، كان أفضل، فإن أفضل السعادة طول العمر في طاعة الله تعالى، فكل ما أبطل العمر والعقل والصحة فهو نقصان وخسران.

س: ما هي أقسام الخوف؟

ج: مقامات الخائفين تختلف، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم، أو خوف الميل عن الاستقامة، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة. وأعلى من هذا خوف السابقة، لأن الخاتمة فرع السابقة، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة، ويضع من يشاء من غير وسيلة، لا يسأل عما يفعل.

وقد قال: «**هؤلاء في الجنة ولاأبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي**» [أخرجه أحمد (١٧٢٠٧)، وابن حبان في «صحيحه» (١٨٠٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٧٥٨)].

ومن أقسام الخائفين، من يخاف سكرات الموت وشدته، أو سؤال منكر ونكير، أو عذاب القبر.

ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى، والخوف من المناقشة، والعبور على الصراط، والخوف من النار وأهوالها، أو حرمان الجنة، أو الحجاب عن الله ﷻ، وكل هذه الأسباب مكروهة في أنفسها، مخوفة.

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى، وهوخوف العارفين، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين.

س: ما العلاقة بين الرجاء والخوف؟

ج: الرجاء والخوف جناحان، بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود، ولابد من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسببهما، وما يتعلق بذلك

س: أيهما ينبغي للإنسان أن يغلبه الخوف أم الرجاء؟

ج: فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة، وهي لقاء الله تعالى، والقرب منه، فكل ما أعان على ذلك فهوفضيلة. قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

وعن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**عينان لا تمسهما النار أبدًا: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**» [أخرجه الترمذي (١٦٣٩)، وقال: حديث حسن، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٣٣٢٢)].

واعلم: أن قول القائل: أيما أفضل الخوف، أو الرجاء؟ كقوله: أيما أفضل الخبز أو الماء؟

وجوابه: أن يقال الخبز للجائع أفضل، والماء للعطشان أفضل، فإن اجتمعا، نظر إلى الأغلب، فإن استويا، فهما متساويان، والخوف والرجاء دواءان يداوي بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب الأمن من

مكر الله، فالخوف أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط، فالرجاء أفضل، ويجوز أن يقال مطلقًا: الخوف أفضل، كما يقال: الخبز أفضل من السكنجبين لأن الخبز يعالج به مرض الجوع، والسكنجبين يعالج به مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثره، فالحاجة إلى الخبز أكثر، فهوأفضل بهذا الاعتبار، لأن المعاصي والاغترار من الخلق أغلب.

وإن نظرنا إلى موضع الخوف والرجاء فالرجاء أفضل، لأن الرجاء يستقى من بحر الرحمة، والخوف يستقى من بحر الغضب.

وأما المتقي، فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرجاء، ولذلك قيل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه، لاعتدلا.

قال بعض السلف: لو نودي: ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلًا واحدًا، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل. ولونودي: ليدخل النار كل الناس إلا رجلًا واحدًا، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل. وهذا ينبغي أن يكون مختصًا بالمؤمن المتقي.

س: كيف يحصل اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن، وهو على قدم التقوى؟ فينبغي أن يكون رجاؤه أقوى؟

ج: أن المؤمن غير متيقن صحة عمله، فمثله من بذر بذرًا ولم يجرب جنسه في أرض غريبة، والبذر الإيمان، وشروط صحته دقيقة، والأرض القلب، وخفايا خبثه وصفائه من النفاق، وخبايا الأخلاق غامضة، والصواعق أهوال سكرات الموت، وهناك تضطرب العقائد، وكل هذا يوجب الخوف عليه، وكيف لا يخاف المؤمن؟

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة رضي الله عنه: «**هل أنا من المنافقين؟**» وإنما خاف أن تلتبس حاله عليه، ويستتر عيبه عنه، فالخوف المحمود هوالذي يبعث على العمل، ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا.

وأما عند نزول الموت، فالأصلح للإنسان الرجاء، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل، وليس ثمة عمل، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط قلبه،

والرجاء في هذه الحال يقوي قلبه، ويحبب إليه ربه، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا إلا محبًا لله تعالى، محبًا للقائه، حسن الظن به.

وقد قال سليمان التيمي عند الموت لمن حضره: «**حدثني بالرخص، لعلي ألقى الله وأن أحسن الظن به**».

س: كيف يستجلب الخوف؟

ج: حصول الخوف يحصل بطريقين: أحدهما أعلى من الآخر: مثاله أن الصبي إذا كان في بيت، فدخل عليه سبع، أو حية، ربما لم يخف منه، وربما مد يده إلى الحية ليأخذها يلعب بها، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها، هرب الصبي، وخاف موافقة لأبيه، فخوف الأب عن معرفة، وخوف الولد من غير معرفة، بل هو تقليل لأبيه.

فإذا عرفت هذا، فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين:

أحدهما: الخوف من عذابه، وهذا خوف عامة الخلق، وهو حاصل بالإيمان بالجنة والنار، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية، ويضعف هذا الخوف بسبب ضعف الإيمان، أو قوة الغفلة.

وزوال الغفلة يحصل بالتذكر، والتفكر في عذاب الآخرة، ويزيد بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم، أو سماع أخبارهم.

المقام الثاني: الخوف من الله تعالى، وهو خوف العلماء العارفين. قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وصفاته سبحانه تقتضي الهيبة والخوف، فهم يخافون البعد والحجاب.

قال ذوالنون: «**خوف النار عند خوف الفراق، كقطرة في بحر**»، ولعامة الناس حظ من هذا الخوف، ولكن بمجرد التقليد، فهو يضاهي خوف الصبي من الحية، تقليدًا لأبيه، فلذلك يضعف، فإن العقائد التقليدية ضعيفة في الغالب، إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المولدة لها على الدوام، وبالمواظبة على مقتضاهافي تكثير الطاعات،

واجتناب المعاصي، فإذا ارتقى العبد إلى معرفة الله تعالى، خافه بالضرورة، ولا يحتاج إلى علاج يجلب الخوف إلى قلبه، بل يخاف بالضرورة. ومن قصر، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى، لأنهم الأنبياء والعلماء والأولياء.

وفي «صحيح مسلم» من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة غلام من الأنصار. فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يدرك الشر ولم يعمله، قال: «**أو غير ذلك يا عائشة؟ إن الله ﷻ خلق للجنة أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**» [أخرجه مسلم (٢٦٦٢)].

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف، قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] فإنه علق المغفرة على أربعة شروط، يبعد تصحيحها.

ومن المخوفات قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢] ثم ذكر بعدها أربعة شروط، بها يقع الخلاص من الخسران. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

ومعلوم أنه لو كان الأمر مستأنفًا لامتدت الأطماع في التحيل، فأما ما حق في القدم، فلا يمكن تداركه، فليس إلا التسليم، لولا أن الله تعالى لطف بعارفيه، وروح قلوبهم بالرجاء، لاحترقت من نار الخوف.

وقال أبوالدرداء رضي الله عنه: «**ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه**».

ولما حضرت سفيان الثوري الوفاة، جعل يبكي، فقال له رجل: يا أبا عبد الله: أراك كثير الذنوب، فرفع شيئًا من الأرض وقال: «**والله لذنوبي أهون عندي من**

هذا، ولكن أخاف أن أسلب الإيمان قبل الموت».

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: «المسلم يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر».

ويروى: «أن نبيًا من الأنبياء، شكا إلى الله تعالى الجوع والعري، فأوحى الله ﷺ إليه: عبدي، أما رضيت أن عصمت قلبك أن يكفرني حتى تسألني الدنيا؟! فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال: بلى قد رضيت، فاعصمني من الكفر».

فإذا كان هذا خوف العارفين من سوء الخاتمة مع رسوخ أقدامهم، فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء؟!

س: ما هي أسباب سوء الخاتمة أعاذنا الله منها؟

ج: لسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت، مثل البدعة، والنفاق، والكبر، ونحو ذلك من الصفات المذمومة، ولذلك اشتد خوف السلف من النفاق.

قال بعضهم: لو أعلم أني بريء من النفاق، كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد، غنما أرادوا نفاق الأعمال، كما ورد في الحديث الصحيح: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» [أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)].

س: ما هي مراتب سوء الخاتمة؟

ج: سوء الخاتمة على رتبتين: إحداهما أعظم، وهي أن يغلب على القلب والعياذ بالله شك، أو جحود عند سكرات الموت وأهواله، فيقتضي ذلك العذاب الدائم.

والثانية دونها، وهي أن يخط الأقدار، ويتكلم بالاعتراض، أو يجور في وصيته، أو يموت مصرًا على ذنب من الذنوب.

وقد روي أن الشيطان لا يكون في حال أشد على ابن آدم من حال الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه.

وقد روي عن النبي ﷺ، أنه كان يدعو: «**اللهم إني أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت**» [أخرجه أحمد في مسنده (١٥٠٩٨) وأبوداود (١٥٥٢)، والنسائي (٥٥٣٣)، ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٢٨٢)].

قال الخطابي: وذلك أن يستولى على الإنسان حينئذ، فيضله ويحول بينه وبين التوبة أو يمنعه الخروج من مظلمة، أو يؤيسه من رحمة الله ويكره إليه الموت، فلا يرضى بقضاء الله ﷻ.

والأسباب التي تفضي إلى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصيل، لكن يمكن الإشارة إلى مجامع ذلك. أما الختم على الشك والجحود، فسببه البدعة، ومعناها أن يعتقد في ذات الله تعالى، أو صفاته، أو أفعاله خلاف الحق، إما تقليدًا، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشف الغطاء عند الموت، بأن له بطلان ما اعتقده، فيظن أن جميع ما اعتقده هكذا لا أصل له.

ومن اعتقد في الله سبحانه وصفاته اعتقادًا مجملًا على طريقة السلف من غير بحث ولا تنقير، فهو بمعزل عن هذا الخطر إن شاء الله تعالى.

وأما الختم على المعاصي، فسببه ضعف الإيمان في الأصل، وذلك يورث الانهماك في المعاصي، والمعاصي مطفئة لنور الإيمان، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى، فإذا جاءت سكرات الموت، ازداد ذلك ضعفًا، لاستشعاره فراق الدنيا، فإن السبب الذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة، وهوحب الدنيا، والركون إليها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب الله، فمن وجد في قبه حب الله تعالى، أغلب من حب الدنيا، فهو أبعد من هذا الخطر، وكل من مات على محبة الله تعالى، قدم به قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم، فضلًا عما يستحقه من الإكرام.

ومن فارقه الروح في حال، خطر بباله فيها لإنكار على الله سبحانه في فعله، أو كان مصرًا على مخالفته، قدم على الله قدوم من قدم به قهرًا، فلا يخفى ما يستحقه من النكال.

فمن أراد طريق السلامة، تزحزح عن أسباب الهلاك، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال، يقلقل قلوب الخائفين.

وقد ورد في «الصحيحين» من حديث سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، وإنه لمن أهل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار**» [أخرجه البخاري (٦٦٠٧)، ومسلم (١١٢)].

وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة، فاحذر أسبابها، وأعد ما يصلح لها، وإياك والتسويف بالاستعداد، فإن العمر قصير، وكل نفس من أنفاسك بمنزلة خاتمتك، لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك، والإنسان يموت على ماعاش عليه، ويحشر على ما مات عليه:

واعلم: أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح، إلا أن تقنع بما يقيمك، وترفض طلب الفضول، وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نرجوأن يزيل بعض القساوة من قلبك، فإنك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقل منك، فتفكر في اشتداد خوفهم، لعلك تستعد لنفسك.

س: اذكر بعض الأخبار حول خوف ملائكة الرحمن؟

ج: قال الله تعالى في صفتهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

وعن يزيد الرقاشي قال: «**إن لله تعالى ملائكة حول العرش تجري أعينهم مثل الأنهار إلى يوم القيامة، يميدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى، فيقول لهم الرب ﷻ: يا ملائكتي ما الذي يخيفكم وأنتم عندي؟ فيقولون: يا رب! لوأن أهل الأرض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه، ما أساغوا طعامًا ولا شرابًا، ولا انبسطوا في فرشهم، ولخرجوا إلى الصحارى يخورون كما تخور البقر**».

وقال محمد بن المنكدر: «**لما خلقت النار، طارت أفئدة الملائكة من أماكنها، فلما خلق آدم عادت**». وروري أنه لما ظهر من إبليس ما ظهر، طفق جبريل، وميكائيل

يبكيان، فأوحي الله تعالى إليهما: «ما هذا البكاء؟ قالا: يارب ! ما نأمن من مكرك. فقال: هكذا فكونا».

س: اذكر بعض الأخبار حول خوف الأنبياء؟

ج: قال وهيب بن الورد: «لما عاتب الله تعالى نوحًا عليه السلام في ابنه فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]. بكي ثلاثمائة عام حتى صار تحت عينيه أمثال الجداول من البكاء».

وقال ابوالدرداء رضي الله عنه: «كان يسمع لصدر إبراهيم عليه السلام إذا قام إلى الصلاة أزيز من بعد خوفًا من الله عز وجل».

وقال مجاهد: «لما أصاب داود عليه السلام الخطيئة، خر لله ساجدًا أربعين يومًا حتى نبت من دموع عينيه من البقل ما غطى رأسه، ثم نادى با رب: قرح الجبين، وجمدت العين، وداود لم يرجع إليه في خطيئته شيء، فنودي: أجائع أنت فتطعم؟ أم مريض فتشفى؟ أم مظلوم فتنصر، فنحب نحيبًا هاج كل شيء نبت، فعند ذلك غفر له».

وقيل: كان داود عليه السلام: «يعوده الناس يظنون أنه مريض، وما به إلا شدة الفرق من الله عز وجل».

وكان عيسى عليه السلام: «إذا ذكر الموت يقطر جلده دمًا».

وبكى يحي بن زكريا عليهما السلام: «حتى بدت أضراسه، فاتخذت أمه قطعتين من لبود فألصقتهما بخديه».

س: اذكر بعض أخبار خوف نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؟

ج: عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قط مستجمعًا ضاحكًا، حتى أرى لهواته إنما كان يبتسم، وكان إذا رأى غيمًا وريحًا عرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت الكراهة في وجهك! فقال: «يا عائشة: ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد

عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا» [أخرجه مسلم (٨٩٩)].

وكان ﷺ يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء.

س: اذكر بعض صور خوف أصحاب النبي ﷺ و﵃؟

ج: عن أبي بكر الصديق ﵁ أنه كان يمسك لسانه ويقول: «**هذا الذي أوردني الموارد. وقال: يل ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل**». وكذلك قال طلحة وأبوالدرداء وأبوذر ﵃.

وكان عمر بن الخطاب ﵁ يسمع آية فيمرض فيعاد أيامًا. وأخذ يومًا تبنة من الأرض فقال: «**يا ليتني كنت هذه التبنة، يا ليتني لم أك شيئًا مذكورًا، يا ليت أمي لم تلدني. وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء**».

وقال عثمان ﵁: «**وددت أني إذا مت لا أبعث**».

وقال أبوعبيدة بن الجراح ﵁: «**وددت أني كنت كبشًا فذبحني أهلي، فأكلوا لحمي، وحسوا مرقي**».

وقال عمران بن حصين: «**يا ليتني كنت رمادًا تذروه الرياح**».

وقال حذيفة ﵁: «**وددت أن لي إنسانًا يكون في مالي، ثم أغلق علي بابي، فلا يدخل علي أحد حتى ألحق بالله ﷻ**». «**وكان مجرى الدمع في خد ابن عباس ﵄ كالشراك البالي**».

وقالت عائشة ﵂: «**يا ليتني كنت نسيًا منسيًا**».

وقال علي ﵁: «**والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، فما أرى اليوم شيئًا يشبههم. لقد كانوا يصبحون شعثًا غبرًا، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجدًا وقيامًا، يتلون كتاب الله تعالى، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا لله ﷻ، مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم حتى**

تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين».

س: اذكر بعض أخبار خوف التابعين؟

ج: قال هرم بن حيان: «وددت والله أني شجرة أكلتني ناقة، ثم قذفتني بعرًا، ولم أكابد الحساب يوم القيامة، إني أخاف الداهية الكبرى».

وكان علي بن الحسين إذا توضأ اصفر وتغير، فيقال: مالك؟ فيقول: «أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟» «وكان محمد بن واسع يبكي عامة الليل لايكاد يفتر».

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض الطير، ويبكي حتى تجري دموعه على لحيته. وبكى ليلة فبكى أهل الدار، فلما تجلت عنهم العبرة قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين مم بكيت؟ قال: «ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله تعالى، فريق في الجنة، وفريق في السعير. ثم صرخ وغشي عليه».

ولما أراد المنصور بيت المقدس، نزل براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز فقال له: «أخبرني بأعجب ما رأيت من عمر. فقال: بات ليلة على سطح غرفتي هذه وهومن رخام، فإذا انا بماء يقطر من الميزاب، فصعدت فإذا هوساجد، وإذا دموع عينه تنحدر من الميزاب».

وقد روينا عن: «عمر بن عبد العزيز وفتح الموصلي أنهما بكيا الدم».

وقال إبراهيم بن عيسى اليشكري: «دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزل الناس، وتفرغ لنفسه، فذاكرته شيئًا من أمر الاخرة، وذكر الموت. قال: فجعل يشهق حتى خرجت نفسه».

وقال مسمع: «شهدت عبد الواحد بن زيد وهويعظ، فمات يومئذ في ذلك المجلس أربعة أنفس».

وكان يزيد بن مرشد يبكي كثيرًا ويقول: «والله لو تواعدني ربي أن يسجنني في الحمام، لكان حقي أن لا أفتر من البكاء، فكيف وقد تواعدني أن يسجنني في النار إن عصيته؟!»

وقال السري السقطي: «**إني لأنظر كل يوم إلى أنفي مخافة أن يكون قد اسود وجهي**».

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعلماء والأولياء، ونحن أجدر بالخوف منهم، ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولكن بصفاء وكمال المعرفة، وإنما أمنا لغلبة جهلنا وقوة قساوتنا، فالقلب الصافي تحركه أدنى مخافة، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ.

قال بعض السلف: قلت لراهب: أوصني، فقال: إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام، فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فيفترسه، أو يسهو فينهشنه، فهومذعور فافعل. قلت: زدني. فقال: الظمآن يجزيه من الماء أيسره. وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخص احتوشته السباع والهوام، فهوحقيقة في حق المؤمن، فإن من نظر إلى باطنه بنور بصيرته، رآه مشحونًا بالسباع والهوام، كالغضب، والحقد، والحسد، والكبر، والعجب، والرياء، وغير ذلك، وكلهن ينهشنه ويفترسنه إن سها عنهن، إلا أنه محجوب عن مشاهدتها، فإذا انكشف الغطا ووضع في القبر، عاينها متمثلة حيات وعقارب عن يلدغنه، وإنما هي صفاته الحاضرة الآن، فمن أراد أن يقهرها قبل الموت ويقتلها فليفعل، وإلا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه، فضلًا عن ظاهر بشرته والسلام.

الفقر

س: اذكر فضل بغض الدنيا؟

ج: حب الدنيا رأس كل خطيئة، وبغضها أسباب كل طاعة، وقد سبق ذكر ذم الدنيا، ونحن نذكر الآن فضل البغض لها والزهد فيها، فإنه رأس المنجيات. ومقاطعتها إما أن تكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرًا، وإما بانزواء العبد عنها، ويسمى ذلك زهدًا، ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات، وحظ في

الإعانة على الفوز والنجاة، ونحن نذكر الفقر، والزهد، ودرجاتهما، وأقسامهما، وما يتعلق بهما.

س: من هو الفقير؟

ج: الفقير إلى الشيء هو المحتاج إليه، وكل موجود سوى الله تعالى فهو فقير، لأنه محتاج إلى دوام الوجود، وذلك مستفاد من فضل الله تعالى.

وأما فقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته فلا يحصر، ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال.

س: ما هي أحوال العبد عند فقره؟

ج: يتصور أن يكون للعبد خمسة أحوال عند فقره:

الأولى: أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به، وهرب من أخذ بغضًا له، واحترازًا من شره وشغله، وصاحب هذه الحالة يسمى زاهدًا.

الحالة الثانية: ان يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله، ولا يكرهه كراهة يتأذى بها، وصاحب هذه الحالة يسمى راضيًا.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة له فيه، ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه، بل إن أتاه عفوًا أوصفوًا أخذه وفرح به، وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به. وصاحب هذه الحالة يسمى قانعًا.

الرابعة: أن يكون تركه للطلب لعجزه، وإلا فهو راغب فيه، لو وجد سبيلًا إلى طلبه بالتعب لطلبه، وصاحب هذه الحالة يسمى الحريص.

الخامسة: أن يكون مضطرًا إلى ما قصد من المال، كالجائع، والعاري الفاقد للمأكول والملبوس. ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرًا، كيفما كانت رغبته في الطلب ضعيفة أو قوية. وأعلى هذه الخامسة: الحالة الأولى، وهي: الزهد، ووراءها حالة أخرى أعلى منها، وهي أن يستوي عنده وجود المال وعدمه، فإن وجه لم يفرح

به، ولم يتأذ إن فقده، كما روينا عن عائشة رضي الله عنها أنها جاءها مال في غرارتين، ففرقته في يومها، فقالت لها جاريتها: أما استطعت أن تشتري لنا مما قسمت لحمًا بدرهم نفطر عليه؟ فقالت: «**لو ذكرتيني لفعلت**».

فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحذافيرها في يده لم تضره، إذ هو يرى الأموال في خزانة الله تعالى، لا في يد نفسه.

وينبغي أن يسمى صاحب هذه الحالة المستغني، لأنه غني عن فقد المال ووجوده جميعًا، ومتى كان الزاهد في الدنيا لا يرغب في وجودها، ولا عدمها، فهو في غاية الكمال.

قال أحمد بن أبي الحواري لأبي سليمان الداراني: قال مالك بن دينار للمغيرة: «**اذهب إلى البيت فخذ الزكاة التي أهديتها لي، فإن الشيطان يوسوس لي أن اللص قد أخذها، فقال أبوسليمان: هذا من ضعف الزهد، هو قد زهد في الدنيا ما عليه من أخذها**». فالهرب من المال والزهد فيه في حق الضعفاء كمال، فأما في حق الأنبياء والأقوياء، فسواء عليهم وجوده وعدمه. وقد يظهر القوي النفار من المال ليقتدي به الضعفاء في الترك، والله أعلم.

س: اذكر بعض الآيات والأخبار في فضيلة الفقر على الغنى؟

ج: أما الآيات فقد قال الله تعالى في معرض المدح في حق الفقراء: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٧٣]. وقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ ... الآية [الحشر: ٨].

وأما الأخبار فكثيرة، منها: قوله ﷺ: «**قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء، إلا أن أصحاب الجد محبوسون**» [أخرجه البخاري (٦٥٤٧)، ومسلم (٢٧٣٦)]. وذكر تمام الحديث. وهو في «الصحيحين». وفيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا**» [أخرجه البخاري (٦٤٦٠)،

ومسلم (١٠٥٥)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعًا حتى قبض**» [أخرجه البخاري (٥٤١٦)]. وفي أفراد مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال: «**لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد دقلًا يملأ بطنه**» [أخرجه مسلم (٢٩٧٨)].

وروى أبوهريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام**» [أخرجه الترمذي (٢٣٥١)، وابن ماجه (٤١٢٣) كتاب الزهد - باب منزلة الفقراء، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٨٠٧٦)]. وقال الترمذي: حديث صحيح. وقيل لموسى عليه السلام: «**إذا رأيت الفقر مقبلًا، فقل: مرحبًا بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلًا فقل: ذنب عجلت عقوبته**». وقال أبو الدرداء: «**حساب ذي الدرهمين أشد حسابًا من ذي الدرهم**». وكان الفقراء يتقدمون في مجلس سفيان الثوري على الأغنياء. وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها، وقال: «**تريد أن تمحو اسمي من ديوان الفقراء؟! لا أفعل**».

وقال النبي ﷺ: «**طوبى لمن هدي إلى الإسلام وكان عيشه كفافًا، وقنع بما آتاه الله عز وجل**» [أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٤٢٦)، والترمذي (٢٣٤٩)، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٣٩٣١)].

س: أيهما أفضل الغني أم الفقير؟

ج: أما التفضيل بين الغني والفقير، فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير، ولكن لابد من تفصيل، فنقول: إنما يتصور الشك والخلاف في فقير صابر ليس بحريص بالإضافة إلى غني شاكر ينفق ماله في الخيرات، أو فقير حريص مع غني حريص، إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من الغني الحريص الممسك، وأن الغني المنفق ماله في الخير أفضل من الفقير الحريص، فإن كان متمتعًا بالمال في المباحثات، فالفقير القنوع أفضل منه. وكشف الغطاء في هذا أن ما يراد لغيره، ولا يراد لعينه، ينبغي أن يضاف إلى مقصوده، إذ به يظهر فضله، والدنيا ليست محذورة لعينها، بل لكونها

عائقة عن الوصول إلى الله تعالى، والفقر ليس مطلوبًا لعينه، ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله تعالى، وعدم التشاغل عنه.

وكم من غني لا يشغله ماله عن الله تعالى، كسليمان ﷺ، وكذلك عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما. وكم من فقير شغله فقره عن المقصود، وصرفه عن حب الله تعالى والأنس به، وإنما الشاغل له حب الدنيا، إذ لا يجتمع معه حب الله تعالى، فإن المحب للشيء مشغول به، سواء كان في فراقه، أو في وصاله، بل قد يكون شغله في الفراق أكثر. والدنيا معشوقة الغافلين، فالمحروم منها مشغول بطلبها، والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها. وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر، فالفقير عن الخطر أبعد، لأن فتنة السراء اشد من فتنة الضراء، ومن العصمة أن لا تجد، ولما كان ذلك طبع الآدميين إلا القليل منهم، جاء الشرع يذم الغني وفضل الفقر. وقد تقدم ما يدل على فضله.

واعلم: أن فراق المحبوب شديد، فإذا أحببت الدنيا، كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه، وفراقك لما تحبه، وكل من فارق محبوبًا كان أذاه في فراقه بقدر حبه له وأنسه به، فينبغي أن تحب من لا يفارقك، وهو الله تعالى، ولا تحب الدنيا التي تفارقك.

س: اذكر بعض آداب الفقير في فقره؟

ج: ينبغي له أن لا يكون كارهًا لما ابتلاه الله به من الفقر، وأرفع من هذا أن يكون راضيًا فرحًا، ويكون متوكلًا على الله سبحانه، واثقًا به ومتى عكس الحال، وكان يشكو إلى الخلق، ولا يشكو إلى الله تعالى، كان الفقر عقوبة في حقه، فلا ينبغي له إظهار الشكوى، بل يظهر التعفف والتجمل. قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وينبغي للفقير أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، ولا يرغب في مجالسته، وينبغي

له أيضًا أن لا يفتر عن العبادة بسبب فقره، ولا يمنع بذل ما فضل عنه، فإن ذلك جهد المقل.

س: ما هي آداب الفقير في قبول العطاء؟

ج: إذا جاءه بغير سؤال ينبغي أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطي، وغرضه في الأخذ.

الأول: أما في نفس المال، فينبغي أن يكون خاليًا عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة فليحترز عن أخذه. وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة، وما يجب اجتنابه، وما يستحب. وأما غرض المعطي، فلا يخلو، إما أن يكون طلبًا للمحبة، وهوالهدية، فلا أس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها منة.

الثاني: أن يكون غرض المعطي الثواب، وهوالزكاة والصدقة، فعليه أن ينظر في صفات نفسه، هل هومستحق أم لا؟ فإن اشتبه عليه فهومحل شبهة، وإن كان صدقة، فكان المعطي إنما يعطيه لدينه، فلينظر إلى باطنه، فإن كان مقارنًا لمعصية في السر، يعلم أن المعطي لوعلم بذلك، لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله بالصدقة عليه، لم يأخذه كما لوأعطاه لظنه أنه عالم فلم يكن.

الثالث: أن يكون غرض المعطي الشهرة والرياء والسمعة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد، ولا يأخذه، لأنه إذا قبله يكون معينًا له على قصده الفاسد. وأما غرضه في الأخذ، فلينظر أهومحتاج إليه أو مستغن عنه؟ فإن مستغنيًا لم يأخذه، وإن كان محتاجًا إليه، وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها، فالأفضل له الأخذ، لما روي عن عمر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك**» [أخرجه البخاري (١٤٧٣)، ومسلم (١٠٤٥)]. أخرجاه في «الصحيحين».

وفي حديث آخر: «**من جاءه من أخيه معروف من غير إشراف ولا مسألة، فليقبله ولا يرده، فإنما هورزق ساقه الله إليه**».

س: ما حكم السؤال لغير ضرورة؟

ج: اعلم: أنه قد ورد في السؤال أحاديث في النهي عنه، وفي الترخيص فيه. أما الترخيص: فكقوله ﷺ: «**ردوا السائل ولو بظلف محرق**» [أخرجه أحمد (١٧٤٧٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٨٥٤)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٠٠٥)]. ولوكان السؤال حرامًا، لما جاز إعانة المعتدي على عدوانه، والإعطاء إعانة. وأما أحاديث النهي عن السؤال: فروى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله ﷻ وليس في وجهه مزعة لحم**» [أخرجه البخاري (١٤٧٥)، ومسلم (١٠٤٠)]. أخرجاه في «الصحيحين».

وفيهما أيضًا: أنه ﷺ ذكر التعفف عن المسألة فقال: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**» [أخرجه البخاري (١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣)]. واليد **العليا** المعطية، والسفلى السائلة.

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أنه ﷺ قال: «**من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسألته يوم القيامة خدوشًا أو كدوحًا في وجهه**» [أخرجه أحمد (٣٦٦٦)، (٤٤١٩٥)، (٤٤٢٦)، وأبوداود (١٦٢٦)، والترمذي (٦٥٠)، والنسائي (٢٥٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٠)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٤٩٩)]. إلى آخره، وفي المعنى أحاديث كثيرة. وكشف الغطاء في هذا أن نقول: السؤال في الأصل حرام، لأنه لا ينفك عن ثلاثة أمور:

أحدها: الشكوى.

والثاني: إذلال نفسه، وما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه.

والثالث: إيذاء المسؤول غالبًا.

وإنما يباح السؤال في حال الضرورة والحاجة المهمة القريبة من الضرورة. أما المضطر، فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتًا أو مرضًا، وكسؤال العاري الذي ليس له ما يواريه. وأما المحتاج حاجة مهمة فهوكمن له جبة ولا قميص تحتها في

الشتاء، فهو يتأذى بالبرد تأذيًا لا ينتهي إلى حد الضرورة، فكذلك من يقدر على المشي لكن بمشقة، يجوز له أن يسأل أجره يكتري بها للركوب، وتركه أولى. ومن وجد الخبز وهو محتاج إلى الأدم، فله أن يسأل مع الكراهة، وكذلك إذا سأل المحمل من هو قادر على الراحلة. وينبغي في مثل هذه المسألة أن يظهر الشكر لله تعالى، ولا يسأل سؤال محتاج، بل يقول: أنا مستغن بما أملكه، وإنما النفس تطالبني، فيخرج بهذا عن حد الشكوى لله تعالى.

وينبغي أن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي لا ينقص بذلك في عينه، أو السخي الذي أعد ماله للمكارم، فيخرج بذلك من الذل. وإن أخذ ممن يعلم أنه إنما أعطاه حياء، لم يجز له الأخذ، ويجب رده إلى صاحبه. ولا يجوز للفقير أن يسأل غلا مقدار ما يحتاج إليه، من بيت يكنه، وثوب يستره، وطعام يقيمه. ويراعي في هذه الأشياء ما يدفع الزمان من غير تنوق في شيء من ذلك، فإن كان يعلم أنه يجد من يسأله كل يوم، لم يجز أن يسأل أكثر من قوت يومه وليلته، وإن خاف أن لا يجد من يعطيه، أو خاف أن يعجز عن السؤال، أبيح له السؤال أكثر من ذلك.

ولا يجوز له في الجملة أن يسأل فوق ما يكفيه لسنته، وعلى هذا يتنزل الحديث المروي في تقدير الغني بخمسين درهمًا، فإنها تكفي المنفرد المقتصد لسنة، فأما ذو العائلة فلا.

س: اذكر أحوال السائلين للعطاء؟

ج: كان بشر الحافي يقول: «**الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل، وإن أعطي لا يأخذ، فهذا من الروحانيين. وفقير لا يسأل، وإن أعطي أخذ، فذاك من أهل حظيرة القدس.**

وفقير إذا احتاج سأل، فكفارة مسألته صدقة في السؤال».

قال الشيخ جمال الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: قلت: وفصل الخطاب أنه متى قدر الفقير على دفع الزمان من غير سؤال، لم يجز له أن يسأل، فإن كان يندفع على مضض، نظرت، فإن

كان مثله لا يحتمل، ولا يخاف منه التلف، فالسؤال مباح وتركه فضيلة، وإن كان مثله لا يحتمل، وجب عليه أن يسأل.

قال سفيان الثوري رحمه الله: «**من جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار**».

الزهد

س: وضح مقام الزهد وفضله؟

ج: الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوبًا فيه من الوجوه، فمن رغب عن شيء ليس مرغوبًا فيه ولا مطلوبًا في نفسه، لم يسم زاهدًا، ما ترك التراب لا يسمى زاهدًا.

وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن ترك الدنيا، ومن زهد في كل شيء سوى الله تعالى، فهو الزاهد الكامل، ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها، فهو أيضًا زاهد، ولكنه دون الأول.

واعلم: أنه ليس من الزهد ترك المال، وبذله على سبيل السخاء والقوة، واستمالة القلوب، وإنما الزهد أن يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الآخرة.

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب، والآخرة كالدر يبقى، قويت رغبته في بيع هذه بهذه. وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧] وقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث والآثار في فضل الزهد؟

ج: من فضيلة الزهد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وقال النبي ﷺ: «**من أصبح وهمه الدنيا، شتت الله عليه أمره، وفرق عليه**

obeikandi.com

ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ماكتب له، ومن أصبح وهمه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة» [أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٤٩٢٥)، من حديث زيد بن ثابت ﷺ، والترمذي (٢٤٦٥)، من حديث أنس بن مالك ﷺ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع»، برقم (٦٥١٠)].

وقال الحسن: «يحشر أناس عراة ما خلا أهل الزهد، وقال: إن أقوامًا أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب، فأهينوها، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها».

وقال الفضيل: «جعل الشر كله في بيت، وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا».

وكان بعض السلف يقول: «الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن».

س: ما هي درجات الزهد؟

ج: من الناس من يزهد في الدنيا وهولها مشته،لكنه يجاهد نفسه، وهذا يسمى: المتزهد، وهو مبدأ الزهد.

الدرجة الثانية: أن يزهد فيها طوعًا لا يكلف نفسه ذلك، لكنه يرى زهده ويلتفت إليه، فيكاد يعجب بنفسه، ويرى أنه قد ترك شيئًا له قدر لما هوأعظم قدرًا منه، كما يترك درهمًا لأخذ درهمين، وهذا أيضًا نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا أن يزهد طوعًا، ويزد في زهده، فلا يرى أنه ترك شيئًا، لأنه عرف أن الدنيا ليست بشيء، فيكون كمن ترك خرقة، وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة، فإن الدنيا بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أحسن من خرقة بالإضافة إلى جوهرة، فهذا هوالكمال في الزهد.

واعلم: أن مثل من ترك الدنيا، مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل، فقرب من الملك، أفتراه يرى لنفسه يدًا

عند الملك بلقمة ألقاها غلى كلبه في مقابلة ما قد ناله؟

فالشيطان كلب في باب الله ﷻ، ويمنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوح، والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة، فمن تركها لينال عز الملك، فكيف يلتفت إليها؟ ثم إن نسيتها، أعني ما سلم لكل شخص منها ولوعمر ألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا، لأن الفاني لا نسبة له إلى الباقي، كيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة؟

س: ما هي أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه؟

ج: أقسام الزهد بالإضافة إلى المرغوب فيه، على ثلاث درجات:

أحدها: الزهد للنجاة من العذاب، والحساب، والأهوال التي بين يدي الآدمي، وهذا زهد الخائفين.

الدرجة الثانية: الزهد للرغبة في الثواب، والنعيم الموعود به، وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء تركوا نعيمًا لنعيم.

الدرجة الثالثة: وهي العليا. وهو أن لا يزهد في الدنيا للتخلص من الآلام، ولا للرغبة في نيل الذات، بل لطلب لقاء الله تعالى، وهذا زهد المحسنين العارفين، فإن لذة النظر إلى الله ﷻ بالإضافة إلى لذات الجنة، كلذة ملك الدنيا، والاستيلاء عليها، بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به.

س: ما حكم الزهد في ضروريات الحياة وكيف يكون ذلك؟

ج: الضروريات المهمات سبعة أشياء: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه.

فأما الأول - وهوالمطع - فاعلم أن همة الزاهد منه ما يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ.

وفي الحديث: «**إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين**» [أخرجه أحمد (٢١٦٠٠)، (٢١٦١٣)، وفي

«الزهد» (ص٦)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٣٩٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٧٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٦٦٨)]. وقالت عائشة ﵂ لعروة: «**كان يمر بنا هلال، وهلال، وهلال، ما يوقد في بيت رسول الله ﷺ نار. قال: قلت: يا خالة: فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: الماء والتمر**»، والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة.

وقد كان كثير من الزهاد يخشنون المطعم، وكان فيهم من لا يطيق ذلك. فكان الثوري حسن المطعم، وربما حمل في سفرته اللحم المشوي والفالوذج.

وفي الجملة فالزاهد يقصد ما يصلح به بدنه، ولا يزيد في التنعم، إلا أن الأبدان تختلف، فمنها ما لا يحمل التخشن.

وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال يتقوته، فلا يخرجه ذلك من الزهد، فقد كان السبتي يعمل من السبت إلى السبت ويتقوته.

وورث داود الطائي عشرين دينارًا، فأنفقها في عشرين سنة.

الثاني: الملبس، فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرود، ويستر العورة، ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل، لئلا يخرجه التقشف إلى الشهرة. وكان أكثر لباس السلف خشنًا، فصار لبس الخشن شهرة.

وقد روي عن أبي بردة قال: «**أخرجت إلينا عائشة ﵂ كساء ملبدًا، وإزارًا غليظًا، وقالت: قبض رسول الله ﷺ في هذين**» [أخرجه البخاري (٥٨١٨)، ومسلم (٢٠٨٠)].

وعن الحسن قال: «**خطب عمر ﵁ وهو خليفة، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة**».

الثالث: المسكن، فللزاهد فيه ثلاث درجات:

أعلاها: أن لا يطلب موضعًا خاصًا لنفسه، بل يقنع بزوايا المساجد، كأصحاب الصفة.

وأوسطها: أن يطلب موضعًا خاصًا لنفسه، مثل كوخ من سعف، أو خص وما اشبه ذلك.

وأدناها: أن يطلب حجرة مبنية. ومتى طلب السعة وعلوالسقف، فقد جاوز حد الزهد في المسكن. وقد توفي رسول الله ﷺ ولم يضع لبنة على لبنة.

قال الحسن: «**كنت إذا دخلت بيوت رسول الله ﷺ، نلت السقف**». وفي الحديث: «**إن المسلم ليؤجر في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب**» [أخرجه البخاري (٥٦٧٢)، ومسلم (٢٦٨١)، من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه]. وقال إبراهيم النخعي رحمه الله: «**إذا كان البنيان كفافًا، فلا أجر ولا وزر**». وفي الجملة: إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الزهد.

الرابع: أثاث البيت، فينبغي للزاهد أن يقتصر فيه على الخزف، ويستعمل الإناء الواحد في مقاصده، فيأكل في القصعة، ويشرب فيها، ومن خرج إلى كثرة العدد في الآلة، أو في نفاسة الجنس، خرج عن الزهد.

ولينظر إلى سيرة رسول الله ﷺ. ففي «صحيح مسلم» من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**دخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير، نحو الصاع**» [أخرجه مسلم (١٤٧٩)]. وفي رواية البخاري: «**فوالله ما رأيت شيئًا يرد البصر**» [أخرجه البخاري (٥١٩١)]. والحديث مشهور في«صحيح مسلم».

وقال علي رضي الله عنه: «**تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش إلا جلد، كنا ننام عليه بالليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار، وما لي خادم غيرها، ولقد كانت تعجن، وإن قصتها لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذي بها**».

ودخل رجل على أبي ذر رضي الله عنه، فجعل يقلب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر! ما أرى في بيتك متاعًا، ولا أثاثًا. فقال: «**إن لنا بيتًا نوجه إليه صالح متاعنا. فقال: إنه لابد لك من متاع ما دمت ها هنا، فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه**».

الخامس: المنكح، لا معنى للزهد في أصل النكاح، ولا في كثرته. قال سهل بن عبد الله: «**حبب إلي رسول الله ﷺ النساء**».

وكان علي رضي الله عنه من أزهد الصحابة، وكان له أربع نسوة، وبضع عشرة سرية.

وكان أبوسليمان الداراني يقول: «**كل ما شغلك عن الله، من أهل، ومال، وولد، فهو مشؤوم**».

وكشف الغطاء عن ذلك أن نقول: من غلبت عليه شهوته وخاف على نفسه، تعين عليه النكاح، فأما من لا يخاف، فهل النكاح في حقه أفضل أو التعبد؟ فيه اختلاف بين العلماء. مختلفون فيه، منهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنه الكسب الحلال للعائلة، فلا يقدح ذلك في دينه، ولا يتشتت قلبه، بل يجمع النكاح همه، ويكف بصره، ويرد فكره، فهذا غاية في الفضيلة، وعليه يحمل حال رسول الله ﷺ، وحال علي رضي الله عنه، ومن جرى مجراهما، ولا التفات إلى قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح، فإن ذلك يقع ضمنًا وتبعًا للمقصود. وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدون على الجميلة، وذلك محمول على أن تلك تكون إلى الدين أميل، والنفقة عليها أقل، والاهتمام بأمرها يسير، بخلاف المستحسنة، فإنها تشتت القلب، وتشغله، وتريد زيادة في النفقة، وربما لم يكن. وقد قال مالك بن دينار: «**يعمد أحدهم فيتزوج ديباجة الحي فتقول: أريد مرطًا فتمرط دينه**».

السادس: المال: وهو ضروري في المعيشة، فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت، وكان في الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف. «**وكان حماد بن سلمة إذا فتح حانوته وكسب حبتين، قام**».

وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت، وخلف أربعمائة دينار، وقال: «**إنما تركتها لأصون بها عرضي وديني**».

السابع: الجاه، ولابد للإنسان من جاه حتى في قلب خادمه، واشتغال الزاهد بالزهد يمهد له الجاه في القلب، فينبغي أن يتحرز من شر ذلك.

وفي الجملة فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا، وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال، فيقولون: لا نأخذه، نخاف أن يفسد علينا ديننا.

س: ما هي علامات الزهد؟

ج: قد تظن أن تارك المال زاهد، وليس كذلك، فإن ترك المال، وإظهار التخشن، سهل على من أحب المدح بالزهد، فكم من راهب قد لازم الدير، وقلل المطعم، وقواه على ذلك حب المحمدة، كما سبق ذكره في كتاب الرياء.

ولابد من الزهد في فضول الأموال والجاه جميعًا، حتى يكمل الزهد في حظوظ النفس، فأول معرفة الزهد مشكل.

وقد قال ابن المبارك: «**أفضل الزهد إخفاء الزهد**»، وينبغي أن يعول في هذا على ثلاث علامات.

الأولى: أن لا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]. وهذا علامة الزهد في المال.

الثاني: أن يستوي عنده ذامه ومادحهن وهذه علامة الزهد في الجاه. الثالث: أن يكون أنسه بالله، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة. فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى، فمهما في القلب كالماء والهواء في القدح، إذا دخل الماء خرج الهواء، فلا يجتمعان.

قيل لبعضهم: إلام أفضى بهم الزهد؟: إلى الأنس بالله.

قال يحيى بن معاذ: «**الدنيا كالعروس، ومن يطلبها ماشطتها، والزاهد يسخم وجهها، وينتف شعرها، ويخرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله تعالى عنها**». فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه. وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى.

التوكل

س: اذكر بعض الآيات والأحاديث في فضيلة التوكل؟

ج: قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]. وقال تعالى﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وفي الحديث: أن النبي ﷺ ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفًا لا حساب عليهم، ثم قال: «**هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**» [أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠)].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**».

س: ما هي طبقات التوحيد التي ينبني عليها التوكل؟

ج: التوكل يبتني على التوحيد، والتوحيد طبقات: منها أن يصدق القلب بالوحدانية المترجم عنها قولك، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهوعلى كل شيء قدير، فيصدق بهذا اللفظ، لكن من غير معرفة دليل، فهواعتقاد العامة.

الثانية: أن يرى الأشياء المختلفة، فيراها صادرة عن الواحد، وهذا مقام المقربين.

الثالثة: أن يرى الإنسان إذا انكشف عن بصيرته أن لا فاعل سوى الله، لم ينظر إلى غيره، بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل، لأنه في الحقيقة هوالفاعل وحده، فسبحانه والكل مسخرون له، فلا يعتمد على المطر في خروج الزرع، ولا على الغيم في نزول المطر، ولا على الريح في سير السفينة، فإن الاعتماد

على ذلك جهل بحقائق الأمور. ومن انكشفت له الحقائق، علم أن الريح لا تتحرك بنفسها، ولا بد لها من محرك. فالتفات العبد في النجاة إلى الريح يضاهي التفات من أخذ لتضرب عنقه، فوقع له الملك بالعفوعنه، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاتب والقلم لا من محرك القلم، وهذا غاية الجهل. ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه، شكر الكاتب دون القلم، وكل المخلوقات في قهر تسخير الخالق أبلغ من القلم في يد الكاتب، فسبحان مسبب الفعال لما يريد.

س: ما هو حد التوكل وتعريفه؟

ج: التوكل مأخوذ من الوكالة، يقال: وكل فلان أمره إلى فلان، أي فوض أمره إليه، واعتمد فيه عليه.

فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الموكل، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء: الشفقة، والقوة، والهداية. فإذا عرفت هذا، فقس عليه التوكل على الله سبحانه، وإذا ثبت في نفسك أنه لا فاعل سواه، واعتقدت مع ذلك أنه تام العلم والقدرة والرحمة، وأنه ليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء علمه علم، ولا وراء رحمته رحمة، اتكل قلبك عليه وحده لا محالة، ولم يلتفت إلى غيره بوجه، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك، فسببه أحد أمرين:

إما ضعف اليقين بأحد هذه الخصال، وإما ضعف القلب باستيلاء الجبن عليه، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب قد ينزعج ببقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان في اليقين، فإنه من كان يتناول عسلًا، فشبه بين يديه بالعذرة، ربما نفر طبعه منه، وتعذر عليه تناوله. ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أو فراش أو بيت، نفر طبعه من ذلك، وإن كان متيقنًا كونه ميتًا جمادًا في الحال، ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات، وذلك جبن في القلب، وهو نوع ضعف قلما يخلوا الإنسان منه، وقد يقوى ذلك حتى يصير مرضًا، حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع غلق الباب وإحكامه.

فإذا لا يتم التوكل إلا بقوة القلب، وقوة اليقين جميعًا، فإذا انكشف لك معنى التوكل، وعلمت الحالة التي تسمى توكلًا، فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات:

الأولى: ما ذكرناه، وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى الثقة بكفالته وعنايته، كحاله في الثقة بالوكيل.

الدرجة الثانية: وهي أقوى، أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى سواها، ولا يعتمد إلا إياها، وإن نابه أمر كان أول خاطر يخطر على قلبه، وأول سابق إلى لسانه: يا أماه. فمن كان تألهه إلى الله، ونظره إليه، واعتمادًا عليه، كلف به كما يكلف الصبي بأمه، فيكون متوكلًا حقًا.

والفرق ين هذا وبين الأول، أن هذا متوكل قد فني في توكله عن توكله، إذ لا يلتفت إلى غير المتوكل عليه، ولا مجال في قلبه لغيره.

وأما الأول، فهو متوكل بالتكليف والكسب، وليس فانيًا عن توكله، بل له التفات إليه، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده.

الدرجة الثالثة: وهي أعلى منهما، أن يكون بين يدي الله تعالى مثل الميت بين يدي الغاسل، لا يفارقه إلا أنه لا يرى نفسه ميتًا، وهذا يفارق حال الصبي مع أمه فإنه يفزع إلى أمه، ويصيح ويتعلق بذيلها.

وهذه الأحوال توجد في الخلق، إلا أن الدوام يبعد، ولا سيما المقام الثالث.

س: كيف تكون أعمال المتوكلين؟

ج: قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك بالتدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة، وكلحم على وضم، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع.

والشرع قد أثنى على المتوكلين، وإنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه إلى مقاصده، وسعي العبد إما أن يكون لجلب نفع مفقود كالكسب، أو حفظ موجود

كالادخار، وإما لدفع ضرر لم ينزل، كدفع الصائل، أو لإزالة ضرر قد نزل، كالتداوي من المرض، فحركات العبد لا تعدوهذه الفنون الأربعة.

الفن الأول: في جلب المنافع، فنقول: الأسباب التي بها تجلب المنافع على ثلاث درجات.

أحدها: سبب مقطوع به كالأسباب التي ارتبطت بها المسببات بتقدير الله تعالى ومشيئته ارتباطًا مطردًا لا يختلف، مثاله: أن يكون الطعام بين يديك وأنت جائع، فلا تمد يدك إليه وتقول: أن متوكل، وشرط التوكل ترك السعي، ومد اليد إلى الطعام سعي، وكذلك مضغه وابتلاعه، فهذا جنون محض، وليس من التوكل في شيء، فإنك إذا انتظرت أن يخلق الله فيك شبعًا دون أكل الطعام، أو يخلق في الطعام حركة إليك، أو يسخر ملكًا ليمضغه ويوصله إلى معدتك، فقد جهلت سنة الله.

وكذلك لولم تزرع، وطعمت أن يخلق الله تعالى نباتًا من غير بذر، أو تلد الزوجة من غير وقاع، فكل ذلك جنون، وليس التوكل في هذا المقام ترك العمل، بل التوكل فيه بالعلم والحال.

أما العلم: فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام، واليد، والأسباب، وقوة الحركة، وأنه الذي يطعمك ويسقيك.

وأما الحال، فهوأن يكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى، لا على اليد والطعام، لأنه ربما جفت يدك، وبطلت حركتك، وربما سلط الله عليك من يغلبك على الطعام، فمد اليد إلى الطعام لا ينافي التوكل.

الدرجة الثانية: الأسباب التي ليست متيقنة، لكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها. مثاله من يفارق الأمصار، ويخرج مسافرًا إلى البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادرًا، ولا يستصحب معه شيئًا من الزاد، فهذا كالمجرب على الله تعالى، وفعله منهي عنه، وحمله للزاد مأمور به، فإن رسول الله ﷺ لما سافر تزود واستأجر دليلًا إلى المدينة.

الدرجة الثالثة: ملابسة الأسباب التي يتوهم إفضاؤها إلى المسببات من غير ثقة ظاهرة، كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه، فمتى كان قصده صحيحًا وفعله لا يخرج عن الشرع، لم يخرج عن التوكل، لكنه ربما دخل في أهل الحرص إذا طلب فضول العيش.

وترك التكسب ليس من التوكل في شيء، إنما هومن فعل البطالين الذين آثروا الراحة، وتعللوا بالتوكل.

قال عمر ﷺ: «**المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله**». **الفن الثاني**: في التعرض للأسباب بالادخار، ومن وجد قوتًا حلالًا يشغله كسب مثله عن جمع همه، فادخاره إياه لا يخرجه عن التوكل، خصوصًا إذا كان له عائلة. وفي «الصحيحين» من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، أن النبي ﷺ: «**كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم**» [أخرجه البخاري (٥٣٥٧)، ومسلم (١٧٥٧)]. فإن قيل: فقد نهى رسول الله ﷺ بلالًا يدخر، فالجواب: أن الفقراء كانوا عنده كالضيف، فما كان ينبغي أن يدخر فيجوعون، بل الجواب: أن حال بلال وأمثاله من أهل الصفة كن مقتضاها عدم الادخار، فإن خالفوا كان التوبيخ على الكذب في دعوى الحال لا على الادخار الحلال.

الفن الثالث: مباشرة الأسباب الدافعة للضرر. ليس من شرط التوكل ترك الأسباب الدافعة للضرر، فلا يجوز النوم في الأرض المسبعة، أو مجرى السيل، أو تحت الجدار الخراب، فكل ذلك منهي عنه.

وكذلك لا ينقض التوكل لبس الدرع، وإغلاق الباب، وشد البعير بالعقال. قال الله تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «**اعقلها وتوكل**» [أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٠٦٨)].

ويتوكل في ذلك كله على المسبب لا على السبب، ويكون راضيًا بكل ما يقضي الله عليه. ومتى عرض له إذا سرق متاعه أنه لو حترز لم يسرق، أو أخذ يشكوما جرى عليه، فقد بان بعده عن التوكل.

وليعلم أن القدر له كالطبيب، فإن قدم إليه الطعام فرح، وقال: لولا أنه علم أن الغذاء ينفعني ما قدمه، وإن منعه فرح، وقال: لولا أنه علم أن الغذاء يؤذيني لما منعني.

واعلم: أن كل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الطبيب الحاذق الشفيق، لم يصح توكله، فإن سرق متاعه رضي بالقضاء، وأحل الآخذ، شفقة على المسلمين. فقد شكا بعض الناس إلى بعض العلماء أنه قطع عليه الطريق، وأخذ ماله، فقال: إن لم يكن غمك كيف صار في المسلمين من يفعل هذا أكثر من غمك بمالك، فما نصحت المسلمين.

الفن الرابع: السعي في إزالة الضرر، كمداواة المريض ونحو ذلك.

اعلم: أن الأسباب المزيلة للضرر تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مقطوع به، كالماء المزيل لضرر العطش، والخبز المزيل لضرر الجوع، فهذا القسم ليس تركه من التوكل في شيء.

القسم الثاني: أن يكون مظنونًا، كالفصد، والحجامة، وشرب المسهل، ونحو ذلك. فهذا لا يناقض التوكل، فإن رسول الله ﷺ قد تداوى وأمر بالتداوي [أخرجه أحمد (١٧٩٨٥)، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٨)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٩٣٠)].

وقد تداوى خلق كثير من المسلمين، وامتنع عنه أقوام توكلًا، كما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قيل له: ألا ندعو لك طبيبًا؟ فقال: «رآني **الطبيب**. قيل: **فما قال لك؟ قال: إني فعال لما أريد**».

والذي ننصره أن التداوي أفضل، وتحمل حال أبي بكر رضي الله عنه أنه قد تداوى ثم

أمسك بعد انتفاعه بالدواء، أو يكون قد علم قرب أجله بأمارات.

واعلم: أن الأدوية أسباب مُسخرة بإذن الله تعالى.

القسم الثالث: أن يكون السبب موهومًا، كالكي، فيخرج عن التوكل، لأن النبي ﷺ وصف المتوكلين بأنهم لا يكتوون.

وقد حمل بعض العلماء الكي المذكور في قوله: «**لا يكتوون**» على ما كانوا يفعلونه في الجاهلية، فإنهم كانوا يكتوون ويسترقون في زمن العافي لئلا يمرضوا، فإن النبي ﷺ كان يرقي الرقية بعد نزول المرض، وقد كوى أسعد بن زرارة رضي الله عنه.

وأما شكوى المريض، فهي مخرجة عن التوكل، وقد كانوا يكرهون أنين المريض، لأنه يترجم عن الشكوى، فكان الفضيل يقول: أشتهي مرضًا بلا عواد. وقال رجل للإمام أحمد: كيف أنت؟ قال: «**بخير. قال حممت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا بخير، فلا تخرجني إلى ما أكره**».

فأما إذا وصف المريض للطبيب ما يجده، فإنه لا يضره. وقد كان بعض السلف يفعل ذلك، ويقول: إنما أصف قدرة الله في، ويتصور أن يصف ذلك لتلميذ يقويه على الضراء ويرى ذلك نعمة، فيصف ذلك كما يصف النعمة شكرًا لها، ولا يكون ذلك شكوى. وقد روينا أن النبي ﷺ قال: «**إني أو عك كما يوعك رجلان منكم**» [أخرجه البخاري (٥٦٤٨)، ومسلم (٢٥٧١)].

المحبة

س: اذكر منزلة المحبة لله ﷻ؟

ج: اعلم: أن المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضى، ولا قبل المحبة مقام إلا هو من مقدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد وغيرها.

واعلم: أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ولرسوله فرض، ومن شواهد المحبة قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وهذا دليل على إثبات الحب لله، وإثبات التفاوت فيه.

وفي الحديث الصحيح: أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال: «**ما أعددت لها؟**» قال: يا رسول الله: ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «**المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت**» [أخرجه البخاري (٦١٧١)، ومسلم (٢٦٣٩)]. فما فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها.

وروي أن ملك الموت جاء إلى الخليل عليه السلام ليقبض روحه، فقال له: «**هل رأيت خليلًا يميت خليلة؟ فأوحى الله إليه: هل رأيت حبيبًا يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت اقبض**».

وقال الحسن البصري رحمه الله: «**من عرف ربه أحبه، ومن أحب غير الله تعالى، لا** من حيث نسبته إلى الله، **فذلك لجهله وقصوره عن معرفته، فأما حب الرسول ﷺ، فذلك لا يكون إلا عن حب الله تعالى، وكذلك حب العلماء والأتقياء، لأن محبوب المحبوب محبوب، بل إن ما يفعل المحبوب محبوب، ورسول المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل، ولا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى، ولا مستحق للمحبة سواه**».

وإيضاح ذلك يرجع إلى أسباب:

أحدها: أن الإنسان يحب نفسه، وبقاءه، وكماله، ودوام وجوده، ويكره ضد ذلك من الهلاك والعدم والنقصان، وهذا جبلة كل حي لا يتصور أن ينفك عنها. وهذا يقتضي غاية المحبة لله ﷻ، فإن الإنسان إذا عرف ربه، قطعًا أن وجوده ودوامه وكماله من الله، وأنه المخترع له، الموجد لذاته بعد أن كان عدمًا محضًا لولا فضل الله عليه بإيجاده، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل، ولذلك قال

الحسن البصري: من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا، زهد فيها.

وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه، ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه.

السبب الثاني: أن الإنسان بالطبع يحب من أحسن إليه ولاطفه وواساه، وانتدب لنصرته وقمع أعدائه، وأعانه على جميع أغراضه، فإنه محبوب عنده لا محالة.

وإذا عرف الإنسان حق المعرفة علم أن المحسن إليه هو الله ﷻ فقط. وأنواع إحسانه لا يحيط به حصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [ابراهيم: ٣٤والنحل: ١٨].

وقد أشرنا إلى طرف من ذلك في كتاب الشكر، ولكنا نبين أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز، وأن المحسن في الحقيقة هوالله تعالى.

بيان ذلك أنا نفرض أن شخصًا أنعم عليك بجميع خزائنه وما يملك، ومكنك فيها لتتصرف كيف شئت، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه، وهو غلط، فإنه إنما تم إحسانه بماله، وبقدرته على المال، وبداعيته الباعثة له على صرف المال. فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق إرادته وداعيته؟ ومن الذي حببك إليه، وصرف وجهه إليك، وألقى في نفسه أن صلاح دينه ودنياه في الإحسان إليك، ولولا ذلك ما أعطاك، فكأنه صار مقهورًا في التسليم لا يستطيع مخالفته. فالمحسن هو الذي اضطره وسخره لك، فهو جار مجرى خازن أمير أمره أن يسلم إلى الإنسان خلعة خلعها عليه الأمير، فإن الخازن لا يرى محسنًا بتسليم خلعة الأمير، لأنه مضطر إلى طاعته، ولوخلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك. وكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه، لم يبذل حبةً من ماله حتى يسلط الله عليه الدواعي، ويلقي في نفسه أن حظه في بذل ذلك فيبذله. فينبغي للعارف أن لا يحب إلا الله، إذ الإحسان من غيره محال.

السبب الثالث: أن المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه محبوب في الطباع، فإنه إذا بلغك عن ملك من الملوك أنه عالم عادل عابد رفيق بالناس، متلطف بهم وهوفي قطر بعيد، فإنك تحبه، وتجد في نفسك ميلًا كثيرًا إليه. فهذا حب المحسن من

حيث إنه محسن، فضلًا عن أن يكون محسنًا إليك. وهذا ما يقتضي حب الله تعالى، بل يقتضي أن لا يحب غيره، إلا بحيث أن يتعلق منه بسبب، فإنه سبحانه هوالمحسن إلى الكل كافة، بإيجادهم وتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وترفيههم، إلى غير ذلك من النعم التي لا تحصى، كما قال تعال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [ابراهيم: ٣٤ والنحل: ١٧]. فكيف يكون غيره محسنًا؟ وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته، فمن عرف هذا لم يحب إلا الله تعالى.

وكذلك نقول: كل من كان متصفًا بالعلم، أو بالقدرة أو كان متنزهًا عن الصفات الرذيلة، فإن ذلك يوجب له المحبة. فصفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعًا، ترجع إلى علمهم بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله وشرائع انبيائه، وإلى قدرتهم على إصلاح نفوسهم وإلى تنزيههم عن الرذائل والخبائث. ولمثل هذه الصفات تحب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإذا نسبت هذه الصفات إلى صفات الله تعالى، وجدتها مضمحلة بالنسبة إلى صفاته ﷻ.

أما العلم، فإن علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل، حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض. وقد خاطب الخلق كلهم فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولو اجتمع أهل السموات والأرض، على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة، أو بعوضة، لم يطلعوا على عشر ذلك، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، والقدر اليسير الذي علمه الخلق كلهم، بتعليمه علموه. ففضل علم الله سبحانه على علم الخلائق كلهم خارج عن النهاية، إذ معلوماته لا نهاية لها.

وأما صفة القدرة، فهي أيضًا صفة كمال، فإذا نسبت قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى، وجدت أعظم الأشخاص قوة، وأوسعهم ملكًا، وأقواهم بطشًا، وأجمعهم للقدرة على سياسته نفسه وسياسة غيره، غاية قدرته أن يقدر على بعض صفات نفسه، وعلى بعض امتحان الإنس في بعض الأمور، وهو مع ذلك لا يملك

لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولا يملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى، ولا على حفظ لسانه من الخرس، ولا آذانه من الصمم، ولا بدنه من المرض، ولا يقدر على ذرة من ذرات المخلوقات. وما هو قادر عليه من نفسه وغيره، فليست قدرته من نفسه، بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك. ولو سلط بعوضة على أعظم ملك وأقوى شخص لأهلكته، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه.

قال الله تعالى في حق أعظم ملوك الأرض ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤] فلم يكن جميع ملكه وسلطانه إلا بتمكين الله تعالى، فنواصي الخلق جميعهم في قبضته وقدرته، إن أهلكهم لم ينقص من ملكه وسلطانه ذرة، وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعبأ بخلقه، فلا قادر إلا هو، فله الكمال والعظمة والبهاء والكبرياء والقهر والاستيلاء. فإن تصور أن تحب قادرًا لكمال قدرته وعظمته وعلمه، فلا يستحق ذلك سواه، ولا يتصور كمال التقديس والتنزيه إلا له سبحانه، فهوالواحد الذي لا ند له، الفرد الذي لا ضد له، الصمد الذي لا منازع له، الغني الذي لا حاجة له، القادر الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا راد لحكمه، ولا معقب لقضائه، العالم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وكمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته، وهو المستحق لكمال المحبة استحقاقًا لا يساهم فيه أصلًا.

س: ما هي أجل اللذات وأعلاها؟

ج: اللذات تابعة للإدراكات، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة غريزة لذة، ولم تخلق هذه الغرائز عبثًا، بل لأمر من الأمور، وهو مقتضاها بالطبع، فغريزة شهوة الطعام خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام، ولذة البصر والسمع في الإبصار والإسماع.

وكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهي، وقد تسمى العقل، وتسمى البصيرة

الباطنة، وتسمى نور الإيمان واليقين، وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها بطبعها، فمقتضى طبعها العلم والمعرفة، وذلك لذتها. وليس يخفى أن العلم والمعرفة، ولو في شيء خسيس يفرح به، وأن من ينسب إلى الجهل ولو في شيء خسيس يغتنم به. وكل ذلك لفرط لذة العلم، وما يستشعره من كمال ذاته. فإن العلم من أحسن الصفات ومنتهى الكمال، ولذلك يرتاح الإنسان بطبعه إذا أثني عليه بالذكاء، وغزارة العلم، ثم ليس لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق، ولا لذة العلم بالشعر بقدر شرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها، وشرفها بحسب شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هوالأجل والأكمل والأشرف والأعظم، فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها.

وليت شعري، هل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها. ومزينها ومبديها ومعيدها ومدبرها ومرتبها؟! وهل يتصور أن يكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لا يحيط بجلالها وكمالها وعجائب أمورها وصف الواصفين

فينبغي أن تعرف أن لذة المعرفة أقوى من جميع اللذات المدركة بالحواس الخمس، فإن المعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهر. فلو خير الرجل بين لذة أكل الدجاج السمين واللوزينج، وبين لذة الرياسة، وقهر الأعداء، ونيل درجة الاستيلاء، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد الشهوة البهيمة اختار اللحم والحلواء، وإن كان علي الهمة، كامل العقل، فإنه يختار الرياسة، ويهون عليه الجوع والصبر ضرورة القوت أيامًا.

فاختياره للرياسة دليل على أنه ألذ عنده من الطعومات الطيبة، وكما أن لذة الرياسة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الناقص الهمة، فلذة معرفة الله ﷻ والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على

الخلق، وهذا لا يعرفه إلا من ذاق اللَّذَّتَيْن جميعًا، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر، وينغمس في بحار المعرفة، ويترك الرياسة، ويحتقر الخلق، لعلمه بفتاء رياسته وفناء من عليه رياسته، وكون ذلك مشوبًا بالكدر، مقطوعا بالموت. وتعظم عنده معرفة الله ﷻ، ومطالعة صفاته وأفعاله، ونظام مملكته، فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات، متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق عنهم، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض، يرتع في رياضها، ويقطف من ثمارها، ويكرع من حياضها، وهو آمن من انقطاعها، إذ هي أبدية سرمدية، لا يقطعها الموت، لأن الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى، إذ محلها الروح، وإنما الموت يغير أحوالها، أما أن يعدمها فلا.

والعارفون درجات عند الله تعالى متفاوتون، لا يدخل تفاوت درجاتهم تحت الحصر، وهذه الأمور لا تدرك إلا بالذوق، والحكاية فيها قليلة الجدوى. فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله تعالى ألذ الأشياء، وأنه لا لذة فوقها، ولهذا قال أبوسليمان الداراني رحمه الله: إن لله عبادًا ليس يشغلهم عن الله ﷻ خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغلهم الدنيا عن الله؟!

وقال بعض أصحاب معروف الكرخي: قلت له: أي شيء أهاجك على العبادة؟ فسكت. فقلت: ذكر الموت؟ فقال: وأي شيء الموت؟ قلت: ذكر القبر. وقال: وأي شيء القبر؟ قلت: خوف النار ورجاء الجنة؟ فقال: وأي شيء هذا؟ إن ملكًا هذا كله بيده، إن أحببته أنساك جميع ذلك، وإن كانت بينك وبينه عرفة كفاك جميع ذلك.

وقال أحمد بن الفتح: «**رأيت بشر بن الحارث في منامي، فقلت له: ما فعل معروف الكرخي؟ فحرك رأسه ثم قال: هيهات، حالت بيننا وبينه الحجب، إن معروفًا لم يعبد الله شوقًا إلى جنته ولا خوفًا من ناره، وإنما عبده شوقًا إليه، فرفعه الله إلى الرفيق الأعلى، ورفع الحجب بينه وبينه**».

فمتى حصلت محبة الله تعالى لشخص، صار قلبه مستغرقًا بها، ولا يتلفت إلى جنة، ولا يخاف من نار، فإنه قد بلغ النعيم الذي ليس فوقه نعيم. قال بعضهم:

وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جنته

وإنما أراد لذة القلب في معرفة الله تعالى. وأنها مفضلة على لذة الأكل والشرب والنكاح، فإن الجنة معدن تمتع الحواس، وأما القلب فلذته في لقاء الله تعالى فقط.

واعلم: أن لذة النظر في الآخرة تزيد على المعرفة في الدنيا، وقد اقتضت سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن، ومقتضى الشهوات، وما يغلب عليها من الصفات البشرية، لا تنهي إلى المشاهدة، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة، كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار. والقول في سبب كونه حجابًا يطول، فإذا ارتفع الحجاب بالموت، بقيت النفس وفيها نوع تلوث بالدنيا، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وقد صفوا عن الأكدار، تجلي لهم الحق ﷻ على قدر معرفتهم في الدنيا.

فكل من لا يعرف الله تعالى في الدنيا، لا يراه في الآخرة. وما يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا، ولا يحصد إلا ما زرع، ولا يموت المرء إلا على ما عاش عليه، فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه، إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء، فتضاعف اللذة، والعيش عيش الآخرة. ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وعيش الآخرة بقدر المعرفة، ولهذا جاء في الحديث: «**خير الناس من طال عمره وحسن عمله**» [أخرجه أحمد في مسنده (١٧٢٤٥)، والدارمي (٢٧٤٢) الترمذي (٢٣٢٩)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٢٧٠)]. وذلك لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والذكر، والمواظبة على المجاهدة، والانقطاع عن علائق الدنيا، والتجرد للطلب، فقد عرفت بما ذكرنا معنى المحبة، ومعنى لذة المعرفة، ومعنى الرؤية ولذتها، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند أهل الكمال.

س: ما هي الأسباب المقوية لحب العبد لربه ﷻ؟

ج: أسعد الناس وأحسنهم حالًا في الآخرة أقواهم حبًا لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى، ودرك سعادة لقائه. وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتمكن من مشاهدته من غير منغص ولا مكدر، إلا أن هذا النعيم على قدر المحبة، فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة.

وأصل الحب لا ينفك عن مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوة الحب واستيلاؤه، فذلك ينفك عنه الأكثرون، وإنما يحصل ذلك بشيئين:

أحدهما: قطع علائق الدنيا، وإخراج حب غير الله من القلب، فأحد أسباب ضعف حبه، قوة حب الدنيا، وبقدر ما يأنس القلب بالدنيا ينقص أنه بالله، والدنيا والآخرة ضرتان، وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد، وملازمة الصبر، والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء، وما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والشكر والزهد والخوف وغير ذلك.

السبب الثاني لقوة المحبة: معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة، ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا الفكر الصافي، والذكر الدائم، والتشمير في الطلب، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه: وأقل أفعاله الأرض وما عليها، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات.

والشمس على ما يرى من صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيفًا وستين مرة، فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذي هي مركوزة فيه وهي في السماء الرابعة والسماء الرابعة صغيرة بالنسبة إلى ما فوقها من السموات، ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة، والكرسي في العرش كذلك.

ثم انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب الذي هوجزء من الأرض، وإلى سائر الحيوانات، وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض، وأصغر ما تعرفه من الحيوانات

البعوض، فانظر فيه بعقل حاضر، كيف خلقه الله ﷻ على شكل الفيل الذي هو أعظم الحيوانات، وزاده الجناحين، وانظر كيف شق سمعه وبصره، وخلق في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته، ودبره في سائر أحواله، من القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة، وانظر كيف خلق له الطيران، يطير إذا طلب، وجعل له خرطوما محددًا يمص به الدم.

وانظر إلى النحل في تناولها الأزهار من الأنوار، واحترازها عن الأقذار، وطاعتها إلى كبيرها، حتى إنه يقتل كل ما ورد عليه وقد أكل مستقذرًا، وإلى اختيارها الشكل المسدس، فلا تبني بيتًا مربعًا، ولا مستديرًا، ولا مخمسًا، بل مسدسًا لخاصيته في الشكل المسدس، فإن أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يقرب منه، فإن المربع تخرج منه الزوايا ضائعة، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة، فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة، فلا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير، ثم تتراص الجملة منه، بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلى المسدس، فانظر كيف ألهمه الله تعالى ذلك على صغر حجمه وضعفه، فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات، فالنظر في هذا وأشباهه تزداد المعرفة به، فتزداد المحبة.

وأما السبب في تفاوت الناس في الحب: فاعلم أن الناس مشتركون في أصل الحب، لكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة، فكثير من الناس ليس لهم من معرفة الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت أسماعهم، والعالم البصير يطالع تفصيل صنع الله تعالى حتى يرى ما يبهر عقله، فتزداد عظمة الله في قلبه، فزداد حبًا له، وتجر هذه المعرفة التي هي معرفة عجائب صنع الله تعالى إلى بحر لا ساحل له.

وأما السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى، فاعلم أن كل من صنع شيئًا دل المصنوع على وجود صانعه، وعلى علمه وحياته وقدرته دلالة جلية ظاهرة، وإن كانت هذه الصفات لا تدرك بشيء من الحواس الخمس. فوجود الله ﷻ

وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهد من حجر وشجر ومدر ونبات وحيوان وأرض وسماء وكوكب وبر وبحر، بل أول شاهد علينا أنفسنا وأجسامنا، وتقلب أحوالنا، وتغير قلوبنا، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا.

وجميع ما في العالم شواهد ناطقة، وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها، ودالة على علمه وقدرته وحياته ولطفة وحمته وعظمته وجلاله، إذ كل ذرة تنادي بلسان حالها: إنه ليس وجودها بنفسها، وإنها تحتاج إلى موجد لها، لكن عقولنا بالنسبة إلى إدراك الحضرة الإلهية، كالخفاش بالنسبة إلى النهار، فإنه لضعف بصره يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، وليس عدم إبصاره بالنهار لخفائه، بل لشدة ظهوره واستنارته وضعف أعين الخفاش، فكذلك عقولنا ضعيفة عن إدراك الحضرة الإلهية، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى به عن البصائر والأبصار، فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله ﷻ، وانضم إلى ذلك أيضًا، فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله ﷻ، وانضم إلى ذلك أيضًا أن المدركات الشاهدة لله تعالى، إنما يدركها الإنسان في حال الصبا قبل حضور العقل عنده، ثم تبدوفيه غريزة العقل قليلًا قليلًا، وهو مستغرق الهم، مشغول به، وقد أنس بمدركاته وألفها، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس. وكذلك إذا رأى فجأة حيوانًا غريبًا، أو نباتًا،أوفعلًا من أفعال الله تعالى عجيبًا خارقًا للعادة، انطلق لسانه بالتعجب، فقال: سبحان الله! سبحان الله! وهو يرى طول النهار نفسه، وجميع أعضائه، وجميعه الحيوانات المألوفة، كلها شواهد قاطعة، فلا يحس بشهادتها لطول الأنس بها.

ولو فرض أن أعمى بلغ عاقلًا، ثم انقشعت غشاوة عينه، فامتد بصره إلى السماء والأرض، والأشجار، والنبات، والحيوان دفعة واحدة، لخيف على عقله أن ينبهر، لعظم تعجبه من مشاهدة هذه العجائب، وشهادتها لخالقها، فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات، وهو الذي سد على الخلق في سبيل الاستضاءة

obeikandi.com

بنور المعرفة، والسباحة في بحارها الواسعة، والله أعلم وأحكم.

س: ما معنى الشوق لله تعالى؟

ج: قد تقدم في الكلام على المحبة أن الشوق ثمرة من ثمارها، فإن من أحب شيئًا اشتاق إليه.

واعلم: أن الشوق لا يتصور إلا لشيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه. فأما ما لا يدرك أصلًا، فلا يشتاق إليه، وكمال الإدراك بالرؤية، وإنما يكون ذلك في الآخرة.

واعلم: أن الأمور الإلهية لا نهاية لها، وإنما يكشف لكل عبد من العباد بعضها، ويبقى أمور لا نهاية لها، والعارف يعلم وجودها، وكونها لله تعالى، ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال العبد متشوقًا إلى أن يحصل له أصل المعرفة، وينتهي الشوق الأول في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ومشاهدة، ولا يتصور أن يسكن قلب المشتاق في الدنيا.

وكان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين، فقال يومًا: «**يا رب! إن كنت أعطيت أحدًا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني، فقد أضر بي القلق. قال: فرأيته** ﷻ **في النوم، فقال: يا إبراهيم! أما استحيت مني؟! تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي، وهل يسكن قلب المشتاق قبل لقاء حبيبه؟ فقلت: يا رب: تهت في حبك فلم أدر ما أقول**»، فهذا الشوق يسكن في الآخرة. وأما غير ذلك مما هو معلوم لله فلا نهاية له، فلا يتضح للعبد ولا يحيط به، فهو مشغول بلذة ما ظهر له، ولا يزال النعيم واللذة متزايدين حتى يشتغل عن الإحساس بالشوق إلى ما وراء ذلك، فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه.

ومن شواهد الأخبار، ما روي أن رسول الله ﷺ علم رجلًا دعاء، وأمره أن يتعاهد به أهله كل يوم، فذكر فيه: «**أسألك اللهم الرضى بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، وشوقًا إلى لقائك**» [أخرجه أحمد (١٧٨٥٩)، والنسائي

(١٣٠٦، ١٣٠٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٣٠١)].

وفي التوراة: يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم أشد شوقًا.

وفي بعض ما أوحى الله ﷻ إلى بعض عباده: إن لي عبادًا من عبادي، يحبوني وأحبهم، وأشتاق إليهم ويشتاقون إلي، ويذكروني وأذكرهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك. قال: يا رب! وما علامتهم؟ قال: يرعون الظلال بالنهار، كما يرعى الراعي الشفيق غنمه؟ ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أو كارها عند الغروب، فإذا جنهم الليل، واختلط الظلام، وفرشت الفرش، وخلا كل حبيب بحبيبه، نصبوا أقدامهم، وافترشوا وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملقوني بانعامي، فبين صارخ وباك، وبين متأوه وشاك، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبي.

س: تحدث عن محبة الله تعالى للعبد ومعناها؟

ج: شواهد القرآن متظاهرة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ ، الآية [الصف: ٤]. ونبه على أنه لا يعذب من يحبه، لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨] وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. وفي الحديث الصحيح، من رواية أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ: إن الله تعالى يقول: «**ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**» [أخرجه البخاري (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة ؓ]. إلى آخره. وهو حديث مشهور.

س: ما هي علامات محبة العبد لله تعالى؟

ج: من علامة حب الله تعالى للعبد، قول النبي ﷺ: «**عظم الجزاء مع عظم**

البلاء وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط» [أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، وحسنه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» برقم (١٥٦٦)].

ومن أقوى العلامات، حسن التدبير له، يربيه من الطفولة على أحسن نظام، ويكتب الإيمان في قلبه، وينور له عقله، فيتبع كل ما يقربه، وينفر عن كل ما يبعد عنه، ثم يتولاه بتيسير أموره، من غير ذلك للخلق، ويسدد ظاهره وباطنه، ويجعل همه همًا واحدًا، فإذا زادت المحبة، شغله به عن كل شيء.

س: وما علامات محبة العبد لربه ﷻ؟

ج: المحبة يدعيها كل أحد، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى، فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان، وخداع النفس إذا ادعت محبة الله تعالى، ما لم يمتحنها بالعلامات، ويطالبها بالبراهين، فمن العلامات حب لقاء الله تعالى في الجنة، فإنه لا يتصور أن يحب القلب محبوبًا إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، وهذا لا ينافي كراهة الموت، فإن المؤمن يكره الموت، ولقاء الله بعد الموت.

ومن السلف من أحب الموت، ومنهم من كرهه، إما لضعف محبته، أو لكونها مشوبة بحب شيء في الدنيا، أو لأنه يرى ذنوبه فيحب أن يبقى ليتوب.

ومنهم من يرى نفسه في ابتداء مقام المحبة، فيكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء الله تعالى، وهذا كمحب يصله الخبر بقدوم حبيبه عليه، فيحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره، ويعدل له أسبابه، فيلقاه كما يهواه، فارغ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال المحبة، وعلامة هذا: الدؤوب في العمل، واستغراق الهم في الاستعداد.

ومنها أن يكون مؤثرًا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظبًا على طاعة الله تعالى متقربًا إليه بالنوافل. ومن أحب الله فلا يعصيه، إلا أن العصيان لا ينافي أصل المحبة، إنما

يضاد كمالها، فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة، ويدل على ذلك حديث نعيمان أنه كان يؤتى به إلى رسول الله ﷺ فيحده إلى أن أتي به يومًا، فحده، فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله ﷺ: «**لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله**» [أخرجه البخاري (٦٧٨٠)]. فلم تخرجه المعصية عن المحبة، وإنما تخرجه عن كمال المحبة.

ومن العلامات أن يكون مستهترًا بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره بالضرورة، ومن ذكر ما يتعلق به.

فعلامة حب الله تعالى حب ذكره، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول الله ﷺ.

قال الله تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال بعض السلف: «**كنت قد وجدت حلاوة المناجاة، فكنت أدمن قراءة القرآن، ثم لحقتني فترة فانقطعت، فرأيت في المنام قائلًا يقول:**

إن كنت تزعم حبي ... فلم هجرت كتابي

أما تدبرت ما فيـ ... ـه من لطيف عتابي

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاة الله تعالى، وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فإن أقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب، والتنعم بمناجاته.

روي أن عابدًا عبد الله في غيضه دهرًا، فنظر إلى طائر قد عشش في شجرة يأوي إليها، ويصفر عندها. فقال: لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة كنت آنس بصوت هذا الطائر، ففعل، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل لفلان العابد: استأنست

بمخلوق، لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك أبدًا.

فإذن علامة المحبة، كمال الأنس بمناجاة المحبوب، وكمال التنعم بالخلوة، وكمال الاستيحاش من كل ما ينقض عليه الخلوة.

ومتى غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع جميع الهموم، بل يستغرق الحب والأنس قلبه، حتى لا يفهم أمور الدنيا، ما لم تتكرر على سمعه مرارًا، مثل العاشق الولهان.

ومنها أن يتأسف على ما يفوته من ذكر الله تعالى، ويتنعم بالطاعة، لا يستثقلها، ويسقط عنه تعبها. قال ثابت البناني رحمه الله: «**كابدت الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة**».

وقال الجنيد: «**علامة المحبة دوام النشاط، والدؤوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه**»، وكل هذا موجود المثال في المشاهدات، فإن المحب لا يستثقل السعي في مراد محبوبه، ويستلذ خدمته بقلبه، وإن كان شاقًا على بدنه، وكل حب قاهر لا محالة، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل، ترك الكسل في خدمته، وإن كان أحب إليه من المال، ترك المال في حبه.

ومنها أن يكون شفيقًا على جميع عباد الله، رحيمًا بهم، شديدًا على أعدائه، كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب له صارف، فهذه علامات المحبة، فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته، وصفا في الآخرة شرابه. ومن امتزج بحبه حب غير الله، تنعم في الآخرة بقدر حبه، فيمزج شرابه بشيء من شراب المقربين، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٨]. فقوبل الخالص بالصرف، والمشوب بالمشوب. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. ومنها أن يكون في حبه خائفًا بين

obeikandl.com

الهيبة والتعظيم، فإن الخوف لا يضاد المحبة، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعضها أشد من بعض، فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه خوف الإبعاد.

س: ما معنى الأنس بالله والرضى بقضاء الله ﷻ؟

ج: من غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غيره، ويكون أثقل الأشياء على القلب كل ما يعوق عن الخلوة.

قال عبد الواحد بن زيد: «**قلت لراهب: لقد أعجبتك الخلوة، فقال: لوذقت حلاوة الخلوة لاستوحشت إليها من نفسك، قلت: متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى؟ قال: إذا صفا الود، خلصت المعاملة، قلت: متى يصفو الود؟ قال: إذا اجتمع الهم، فصار همًّا واحدًا في الطاعة**».

فإن قيل: ما علامة الأنس؟ قيل: علامته الخاصة ضيق الصدر عن معاشرة الخلق، والتبرم بهم، وإن خالط، فهوكمنفرد غائب مخالط بالبدن، منفرد بالقلب.

واعلم: أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم، قد يثمر نوعًا من الانبساط والإدلال، وقد يكون ذلك منكرًا في الصورة، لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة، وإن كان محتملًا ممن أقيم مقام الأنس. وأما إذا صدر ممن لا يفهم ذلك المقام، أشرف به على صاحبه على الكفر، وذلك كما يروى عن أبي حفص أنه كان يمشي يومًا، فاستقبله رجل مدهوش، فقال: مالك؟ قال: ضل حماري، ولا أملك غيره، فوقف أبوحفص وقال: وعزتك لا أخطوخطوة ما لم ترد عليه حماره، فظهر الحمار. وروي عن برخ العابد أنه خرج يستسقي فقال: «**يارب: أنت بالبخل لا ترمي، أنفذ ما عندك، اسقنا الساعة**».

ولا يستبعد أن يحتمل من شخص ما لم يحتمل من غيره، وأما الرضى بقضاء الله تعالى، فهومن أعلى مقامات المقربين، وهومن ثمار المحبة، وحقيقته غامضة، ولا

ينكشف الأمر فيه إلا لمن يفهمه عن الله تعالى.

الرضا

س: اذكر بعض الآثار في فضل الرضا؟

ج: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود: «**إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك، ولا أحط لوزرك، من الرضى بقضائي**».

ونظر علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى عدي بن حاتم كئيبًا، فقال: «**يا عدي: ما لي أراك كئيبًا حزينًا؟ فقال: وما يمنعني فقد قتل ابناي، وفقئت عيني فقال: يا عدي! من رضي بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى وحبط عمله**».

ودخل أبوالدرداء رضي الله عنه على رجل وهو يموت وهو يحمد الله تعالى، فقال أبوالدرداء: «**أصبت، إن الله عز وجل إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به**». وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «**إن الله تعالى بقسطه وعمله جعل الروح والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**». وقال علقمة في قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ [التغابن: ١١] قال: «**هي المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها ويرضى**».

وقال أبومعاوية الأسود في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ [النحل: ٩٧]. قال: «**الرضى والقناعة**».

وفي الأخبار السالفة: أن نبيًا من الأنبياء شكا إلى ربه عز وجل الجوع والفقر عشر سنين، فما أجيب إلى ما أراد، ثم أوحى الله إليه: كم تشكو؟ هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السماوات والأرض، وهكذا سبق لك مني، وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك؟ أم تريد